المجلة التاريخية الجزائرية | المجلد:04، العدد:01، جوان 2020. العدد التسلسلي:13. ص57-80
ISSN:2572-0023 | Volume: 04-N: 01, June 2020- S/ N 13. p57-80

دور مازونة الثقافي والعلمي في تاريخ الجزائر

The Mazouna cultural and scientific role in the history of Algeria

د/ عبد الله خي*
جامعة أحمد دراية – أدرار
abdalahh047@gmail.com

History of the article/معلومات المقال		
Received/الإرسال	Accepted/المراجعة	Published/القبول للنشر
2020/01/04	2020/02/14	2020/06/30

الملخص:

إن مدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية، والتي شيدت في القرن 16م من طرف الشيخ محمد بن شريف الأندلسي، لعبت دورا هاما في الإشعاع الثقافي، لقد كانت مدينة مازونة مقر المدرسة وملتقى العلماء، ومقر مبادرات فكرية وسياسية تستقطب الطلبة، كما ساهمت في تكوين نخبة مثقفة، ويجدر التنويه هنا إلى أن الحركة السنوسية قد انطلقت من هذه المدرسة، وهي تعد من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني واشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه والحديث وعلم الكلام. لقد كانت مدرسة مازونة على درجة كبيرة من الأهمية فمن حيث الحجم، كانت قاعة مدرستها تسع ما بين 60 إلى 80 طالبا، ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة. كما عرفت المدرسة قدوم طلبة من مدن عديدة لا سيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان، بل حتى من المغرب الأقصى وخاصة منطقة الريف، تخرج من مازونة الكثير من الأعلام من أبرزهم الكاتب والمؤلف أبو راس الناصري الذي وضع قصيدة في فتح وهران سماها" نفيسة الجماني في ثغر الوهراني" وشرحها " عجائب الأسفار ولطائف الأخبار".

الكلمات المفتاحية: مدرسة مازونة، بايلك الغرب، الطريقة السنوسية، أبو راس الناصري، الاحتلال الإسباني.

* المؤلف المرسل/The author of the sender
Dr/ Abdullah Khay: Ahmed Draia University of Adrar , Algeria. Email: abdalahh047@gmail.com

Abstracter:

The Mazouna School of Maghreb fame, which was built in the 16th century AD by Sheikh Muhammad bin Sharif Al-Andalusi, played an important role in the cultural outcry. It is worth noting here that the Senussi movement was launched from this school, and it is considered one of the oldest schools established in the Ottoman era and was particularly famous for the science of jurisprudence, hadith and theology. Mazoona school was of great importance in terms of size, its school hall accommodated between 60 to 80 students, and this number is considered the measure of the flowering stages. The school also knew the arrival of students from many cities, especially Nadroma, Mostaganem, Tennis and Tlemcen, but even from the Far Maghreb, especially the Rif region. Many prominent figures graduated from the balance of the most prominent of them is the writer and author Abu Ras al-Nasiri, who wrote a poem in Fatah Oran and called it "Nafisa al-Jamani in Thaghr al-Wahrani. And explained by "the wonders of travel and the gentle news."

Key words : Mazouna School, Baylik Gharb, Senussiway, Abu Ras Al Naseri, Spanish occupation.

مقدمة:

مع مطلع القرن السادس عشر، عرفت مدينة مازونة انتعاشا كبيرا، وذلك لكونها أصبحت مقر البايلك، حيث قام حسن بن خير الدين سنة 1562م بتنظيم إدارة الإيالة، وهكذا فإن بايلك الغرب أصبحت مازونة عاصمته منذ سنة 1563م، وعين بن خديجة مسؤولا على البايلك. لقد لعبت مازونة دورا هاما وهي تحتل مكانة عاصمة البايلك، كما ساهمت بعدة حملات عسكرية ضد الاحتلال الإسباني لوهران وذلك من سنة 1563م إلى غاية 1791م، بدون أن نهمل أن آخر بايات مازونة وهو الباي شعبان مات وهو يحاصر وهران سنة 1696م. لقد استمرت مازونة عاصمة منذ سنة 1563م إلى غاية 1700م، وخلال هذه المرحلة عرفت المدينة انتعاشا اقتصاديا وثقافيا هاما، حيث أن دور مازونة في الحركة الثقافية على مستوى البايلك والمغرب العربي بصفة عامة كانت له انعكاسات هامة وتأثيرات كبيرة، كما استفادت المدينة من الحواضر الثقافية الأخرى سواء على المستوى المحلي أو الخارجي، هذا الإشعاع الثقافي الذي عرفته

المنارة للاستشارات

مدينة مازونة يعكس ازدهارا ونموا اقتصاديا وبروز فئات اجتماعية كان لها دور فعال في تنشيط الحياة الاقتصادية والنهوض بالحياة الثقافية. لقد ساهمت عوامل مختلفة في إثراء الحياة الثقافية بمازونة، فبالإضافة إلى كون منطقة بايلك الغرب منطقة عبور لجماعات ومنتوجات وأفكار متعددة في اتجاهات مختلفة، حيث نجم عن هذه الحركات احتكاك وترسبات استفادت منها المنطقة، كما أن هذه التيارات لم تعبر أرضا قاحلة، إن الماضي الثقافي لمدينة تلمسان، وتراث مدينة ندرومة وفيما بعد مدينة مازونة ومستغانم ومعسكر يشرح لنا الأدوار التي قامت بها هذه الحواضر في التأثير، كما استفادت المنطقة من عوامل وتراث ثقافي غني أحاول في هذه الورقة البحثية المتواضعة تسليط الضوء على حاضرة مازونة التي كان لها دور كبير وبارز وموكز إشعاع علمي وحضاري في منطقة بايلك الغرب الجزائري خلال الفترة العثمانية. إن الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني تميزت بظهور مدرسة فقهية نالت شهرة واسعة والتحق بها العديد من الطلاب خاصة من مدينة فاس، وهذه المدرسة هي مدرسة مازونة والتي تأسست سنة 565هـ على يد بني منديل أحد أمراء مغراوة الذين اتخذوها قاعدة إمارتهم، والتي قال عنها ابن خلدون: "وانقبضوا إلى مركزهم الأول بشلف وأقاموا فيه ملكا بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط واستولوا على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال مقيمين فيها الدعوة الحفصية واختطوا مدينة مازونة".

أولا/ تعريفها

تعتبر مدينة مازونة من أهم مراكز الإشعاع الحضاري في الجزائر، إلى جانب كونها عاصمة بايلك الغرب في الفترة الحديثة، ومركز السلطة لقبائل مغراوة في العصر الحديث، ناهيك عن موقع الاستراتيجي لطرق القوافل التجارية، وما امتازت به ثقل علمي وديني، جعلها عاصمة تاريخية وحضارية، الى جانب كل من تيهرت وتلمسان وقلعة بني حماد وبجاية.

1- التسمية

تضاربت المصادر الشفوية والكتابية التاريخية منها والجغرافية في ضبط تسمية المدينة، فهناك من اعتبر كلمة "مازونة" مصطلح بربري، يعني أرض الرجال الأقوياء، وهناك من يرجعها إلى أن ملكا حط الرحال بالمنطقة رفقة ابنة له تسمى "زونا"، وطلب من رجاله أن يحضروا لها ماء، فلما

وجدوا المنبع حرموه على الغير وقالوا: "هذا ماء زونة"، ويرى آخرون أن المنطقة كانت تحكمها ملكة تكسب كنزا كله قطع نقدية تسمى "موزونة" [1]

أما في دليل الحيران فيرى محمد بن يوسف الزياني [2] أن مازونة هي اسم لرئيس قبيلة يدعى ماسون Mazun، وحسب إحدى الأبحاث فإن اسم المدينة مشتق من كلمة مزنة Mazna أو مزونة Mouzuna، أو ماطا Mata أو زونا Zouna بينما يرى بطليموس 146 ق م أنها مملكة تابعة لنوميديا وهي مشتقة من" ماسينيسا" الذي أسس لنفسه مدينة بمنطقة الظهرة، وأنها تعني أرض الرجال الأقوياء. بينما يرى آخرون أن "مازونة" أسسها "مانع" الذي تزوج أميرة بربرية تدعى "ماونة"، وتعني أسماء لأخوين بربريين أحدهما "مازونا" والأخر "مديونا" [3].

2- الموقع الفلكي

يتحدد الموقع الفلكي في نقاط تقاطع خطوط الطول مع دوائر العرض، وتتحدد مدينة مازونة فلكيا بين دائرتي عرض36.03^0 و36.07^0 شمال خط الاستواء وخطي طول 0.45^0 و0.53^0، شرق غرينيتش، وهي بذلك تعد بوابة الإقليم الغربي الجزائري.

3- الموقع الجغرافي

تقع مدينة مازونة بين الإقليمين الغربي والأوسط للجزائر، وهي بذلك تساهم في فك العزلة عن المنطقة الجبلية واعتبارها كمنفذ للمنطقة الغربية المتاخمة للمدينة، إذ تبعد عن عاصمة الإقليم الغربي وهران 200 كلم، و66 كلم عن مركز ولاية غليزان، وأما عن عاصمة الإقليم الأوسط الجزائر العاصمة 230 كلم، كما تبعد بمسافة 55 كلم عن قرية "القلتة" الساحلية.

فالموقع الفلكي والجغرافي لمدينة مازونة جعل مناخها، مناخا انتقاليا، تتميز بشتاء بارد وممطر وصيف حار وجاف مما ساعد على نمو غطاء نباتي كثيف وصاغ أسلوب سكان المنطقة الذين اعتمدوا على تربية المواشي والفلاحة المعاشية [4].

تتصل حدود البلدية بثلاث بلديات وهي: سيدي امحمد بن علي من الشمال والقطار من الغرب وواريزان من الجنوب، إلى جانب بلدية عين امران التابعة لولاية الشلف. ما يجعلها تحتل موقعا إقليميا استراتيجيا هاما في المنطقة.

ثانيا/ نشأتها

يصعب تحديد تاريخ معين لتأسيس المدينة، نظرا لقلة المصادر، وعدم اكتمال الوثائق التي تحدد تاريخ، ومونوغرافية المدن القديمة، وكرأي وسط ذهب الباحث بلحميسي إلى أنّ أصل مازونة بربري، وأنها أيضا كانت موجودة في فترة الرومان [5]، وهذا استئناسا بما ورد في بعض المصادر. مثل الإدريسي (1989) الذي ذكر قائلا: "وهي مدينة بين أجبل ... لها أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ... ولسوقها يوم معلوم يجتمع إليه أصناف من البربر"، فهذا المقتطف الأخير يرجح أنها من تأسيس البربر [6].

بينما يرجع أحد الرحالة تأسيسها إلى العهد الروماني بدليل العثور على أثار وقطع نقدية رومانية بالمنطقة. وهذا ما يدعمه ليون الإفريقي (1983)، بقوله: "وهي مدينة أزلية بناها الرومان، حسب قول بعضهم على بعد نحو أربعين ميلا من البحر... ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان، لا تحمل أي اسم معروف لدينا، لكن مما يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة" [7].

أما الأصل الروماني للمدينة فهو أكثر الاعتبارات اتفاقا حوله، بحكم موقعها المتميز الوسط الذي يراقب الطريق بين الشرق والغرب، فمارمول كربخال (1989) يقول: "أنها مدينة عتيقة بين مستغانم وتنس ... ترى بها أنقاض عدة مدن عهد الرومان ... عليها كتابات لاتينية منقوشة" [8]، وذكر بلحميسي في دراسة حول المنطقة أن الكاتب اللاتيني " بلين" الذي عاش في القرن الأول الميلادي ركز على نوعية قمح الظهرة ذي النوعية الممتازة، ومنها طبعا مازونة [9].

ولو أن فلورنشي Florenchie – حسب أحد الباحثين- نفى وجود البقايا الأثرية الرومانية بين شلف وتنس، وأن المدينة مصورة على مجموعة من الخطوط المنصة في دفعات وطرقات أثناء السير إلى شلف، ومنه إلى تنس، ثم إلى الأصنام [10].

بينما راح بعض المؤرخين العرب، وعلى رأسهم ابن خلدون (2000)، أن مازونة أسسها "بنو منديل عبد الرحمان المغراوي" من بني توجين، وكانوا مقيمين للدعوة الحفصية، في القرن: 6هـ

/ 12م (ص87-88)، بينما أفاد صاحب الترجمانة الكبرى، أن المدينة قد أسسها أمير بني راشد عام 160 / 776م، وذكر الإدريسي أن المدينة كانت موجودة قبل الإسلام بحوالي بضعة قرون [11].

أما من ناحية أخرى يرى المؤرخ الانجليزي "شاو" أن مازونة تم إنشاؤها من طرف الأهالي، طبقا لبناياتها التي تشبه القلعة، وبالتالي هو يخالف من يرجعون تاريخ تأسيسها إلى العهد الروماني مشترطا وجود آثار وبنايات ترجع إلى هذا العهد. إلا أن الاكتشافات التي تمت فيما بعد تؤكد الطرح القائل بأن مازونة كانت مركزا بربريا، وهذا ما تطرق إليه غزال "Gsell" في كتاباته عن إقامة قديمة لرئيس قبيلة " الماسون" المعروف باسم "رجيسماسينغجانتيس"، وذلك حسب ما عثر عليه من آثار وبقايا الصناعة الموستيرية بوادي تامدة ووزيران، وكذلك أطلال بربرية تحت القمة الشمالية الغربية لجبل بسيدي سعيد الواقع غرب سيدي امحمد بن علي ب 15 كلم، كما عثر أيضا على بقايا متنوعة من الفخار البربري بعين إبراهيم [12].

رغم تضارب الآراء واختلافها بشأن تأسيس المدينة بين العراقة والحداثة، إلا أنها في نهاية المطاف تبقى شاهدة – عبر التاريخ – على ذلك المزج المعماري والحضاري الذي عاصر الرومانيين من جهة وملوك البربر من جهة أخرى، جراء ما امتازت به من موقع استراتيجي وإقليمي في آن واحد.

ثالثا/ تطورها

تحتل مازونة مكانة هامة، وتتربع على حافتي وادي الورزان أحد روافد نهر الشلف، مما جعلها محطة بارزة من طرق المواصلات، والتجارة بين شرق المغرب الإسلامي وغربي، كما مر بها العديد من الرحالة والعلماء والفقهاء، وقد أصبحت المدينة إسلامية منذ وصول الفتوحات الإسلامية إليها في القرن الأول الهجري/ السابع ميلادي في قلب الأحداث.

غطت الفترة العثمانية التاريخ الطويل الحافل لمدينة مازونة، لدرجة أصبح الكثير يحصر عراقة المدينة في الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر، بينما يؤكد بعض المؤرخين أنها عرفت تعاقب عدة عصور وحضارات، كانت مازونة ميدانا لمختف الأحداث بين الملوك والقادة.

1- مازونة في العهد الروماني

يرى بوردون أن" احتمال كون مازونة مدينة رومانية كبير جدا، ومن المؤكد أنها كانت آهلة بعدد كبير من السكان، وذلك لكثرة ما تحويه المنطقة من آثار رومانية، داخل المدينة وخارجها، في جهة بني زروال وأولاد كرلوف" وفي موقع أخر يضيف قائلا: "... هذه المدينة التي من المفروض أنها بنيت في العهد الروماني، وإن كان سكانها ينسبونها إلى المسمى ماتع البربري، الذي عاش قبل العهد الإسلامي، ... ومع الأسف لا يمكن توثيق تاريخ المدينة الذي ليس لنا حوله سوى المرويات الشفوية" [13]. أما يوسف للوكيل، فلم يتحدث عن المرحلة الرومانية، بينما أفرد للفترة البربرية عنوانا مستقلا، يؤكد فيه بربرية المنشأ للمدينة، ويستشهد على ذلك بغزارة الأسماء البربرية، التي تعرف بها مختلف أحيائها وجبالها، وعيون الماء فيها [14].

2- مازونة في الفترة الإسلامية

حكمت قبيلة مغراوة البربرية المغرب الأوسط من الشلف إلى تلمسان، وبذلك تعد منطقة مازونة همزة وصل بين المدينتين، بما أن مازونة كانت ضمن نطاق حكم هذه القبيلة، فإنها لم تكن بمعزل عن انتشار الإسلام خاصة الفتوحات التي قام بها المسلمون في المغرب الأوسط ابتداء من أبو مهاجر دينار الذي عبر تراب منطقة مازونة وهو متوجها إلى تلمسان واستكمالا بموسى بن نصير (719- 720م) (100- 101م) الذي قام بفتح شمال إفريقيا والأندلس [15].

في عام 475هـ (1081-1080م)، دخلت مازونة تحت حكم المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، بعد أن وجد مؤيدين له فيها، ولما كانت تمتلكه من موقع استراتيجي في المنطقة، استطاعت المدينة خلال هذه الفترة أن تحدث قفزة علمية جراء المراكز والزوايا التي بلغ عدده خمسة مراكز عليا، إضافة إلى الكتاتيب التي كانت منتشرة في معظم أحياء المدينة فنجم عن ذلك بروز علماء وشعراء وفقهاء في الدين، كما انتشرت المكتبات وتعدد حتى بلغت زهاء العشرين مكتبة [16]. يعتبر بلحميسي، أن القرن 12م هو عصر الازدهار في تاريخ مدينة مازونة، حيث ابتداء من هذه الفترة بدأت المدينة تعرف ذكرا واضحا في التأليف، كما الحال مع الإدريسي في نزهة المشتاق، الذي جعل المدينة عامرة بالنشاط التجاري، الذي مرده إلك كثرة المنتوج الفلاحي

والحيواني الذي تنعم به الأراضي الخصبة المحيطة بالمدينة، بالإضافة إلى المنتوج الصناعي والحرفي، الذي ملأ أسواقها، وجعل بينها وبين مدن أخرى كالقلعة وتلمسان ومراكش روابط تجارية قوية، حتمت على القوافل التجارية المرور بها للتزود بمنتجها [17].

فإذا كان للمدينة ظهور اقتصادي، حتما سيؤدي إلى بروز دور سياسي لها في إطار الصراع الذي عرفته بلاد المغرب المتوسط، خلال عهد بني زيان، فمنذ النصف الثاني من القرن 14، وطوال القرن 15م، أصبحت مازونة تحت رحمة القبائل حيث أقطعها ملوك تلمسان لأمراء قبيلة سويد من أولاد عريف، فقد جاء في العبر: "وتماسك السلطان أبو حمو موسى الثاني بالأمصار وأقطع منها... مازونة لمحمد بن عريف"، وبذلك منحت كافة مناطق بني توجين كلها كإقطاع لسويد عدا جبل ونشريس لتوعره، ومقاومة بني توجين لهم، وقد فتح ذلك المجال لقبائل عربية أن تطمع في السيطرة على المدينة خاصة قبيلة بني عامر من زغبة [18].

لقد أشار المازوني إلى هيمنة الأعراب على المدينة في نوازله، ففي سؤال وجهه إلى شيخه أبي الفضل العقباني جاء فيه: "وذلك أن قريتنا كما تعلم أهلها مملوكون، أو شبه المملوكين لأمراء العرب، يأتي الأمير لدار الحضري ويدخل بلا إذن كأنه دخل ملكه ..."، إذا فهذه الهيمنة هي على علم سلاطين بني زيان الذين من مصلحتهم استيفاء طلبات العرب في الحصول على الأموال، وشغلهم بجمع الضرائب والإتاوات في هذه المناطق، حتى ولو كان نصيب الدولة يسيرا جدا، بهدف إبعاد ضغطهم على الحضرة وما جاورها، وهو ما عاد بالوبال على سكان مازونة الذين فقدوا أمنهم وسيادتهم وحرمتهم وقل إنتاجهم وشل نشاطهم وأصبحوا رهينة في يد الآخرين [19].

3- مازونة في العهد العثماني

وهكذا تأثرت مازونة كثيرا جراء التنافس السياسي عليها، والحروب التي كانت تهز البلاد حتى نهاية عصر بني زيان، ومع مطلع القرن 16م ومجيء الأتراك بدأت المدينة في استرجاع بعضا من بريقها الحضاري، نظرا لموقعها الجغرافي الهام وطاقتها الاقتصادية وسمعتها الفكرية، إذ عرفت المدينة بانتقائها كعاصمة لبايلك الغرب من خلال التقسيم الإداري في عهد الباي حسن بن خير الدين بربروس، وعين ابن خديجة أول بايا على البايلك الغربي عام 1563م [20].

وقد ذكرت بعض المراجع، أن سكان مازونة لم يستسلموا للعثمانيين في بادئ الأمر بل ناضلوا ودافعوا عن حرياتهم قرابة نصف قرن من الزمن وانتهى بتسليم المدينة وإقامة الحكم العثماني وتعيين الباشا لإيالة مازونة حاكما لمدة سنتين [21]. إذ اختارها حسن بن خير الدين – الذي حكم البلاد نهاية النصف الأول من القرن 16– عاصمة لبايلك الغرب، ومنطلق الحملات لحماية مستغانم، وقلعة بني راشد، اللتين كانتا مهددتين بالاستمرار بالغزوات الاسبانية، المنطلقة من وهران، ومن مازونة وسع العثمانيون سلطانهم إلى مليانة، وسيرت الجيوش لمحاولة تحرير وهران أو حصارها [22].

في سنة 1701، حاول السلطان مولاي اسماعيل ملك المغرب، أن يسيطر على البايلك، لكنه انهزم أمام الجيش العثماني بقيادة الباي مصطفى بوشلاغم، مدعوما بقوات من داي الجزائر، ليستغل الباي مصطفى المستجدات ويحول مقر البايات في الغرب إلى مدينة معسكر، يقيم بها حاكم ذو سلطة مدنية وعسكرية، وأصبحت مازونة مقر " أغاليك" وهو مركز لدائرة إقليمية يترأسها "آغا" يتم تعينه من طرف الباي [23].

في سنة 1804، انطلقت ثورة درقاوة، بقيادة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي، واستجابت له بعض قبائل الظهرة، وشاركت معه في حرب البايلك، وأعلنت العصيان عن أمر الباي مصطفى المنزلي، واستطاع الدرقاوي أن يفرض سلطانه على المنطقة من مليانة شرقا، إلى مشارف وهران. لكن هذا النصر لم يدوم طويلا، وتعرض مساندو الدرقاوي من قبائل امجاهر، وافليتة، والظهرة، إلى حملات تأديبية وعقاب شديد من قبل البياليك، ولم تقم لمازونة قائمة بعد ذلك حتى ظهور الاحتلال الفرنسي [24].

4– مازونة بعد دخول الفرنسيين

جراء تعرض الجزائر للغزو الفرنسي 1830، ساهم سكان مدينة مازونة في المقاومة الشعبية، بقيادة الأمير عبد القادر، الذي قسم دولته إلى عدة مقاطعات إدارية تخضع إلى نظام تسلسلي: الخليفاليك، الآغاليك، القايدا، ثم الشيخة، فعينت مازونة مركزا "قايدا" يرأسها قايد، لتبدأ العمليات الجهادية ضد مصالح الاستعمار الفرنسي، ففي 1838 قاد الجيش المازوني سي

قدور بن هاسف تحت لواء الأمير عبد القادر، واستمرت المقاومة في منطقة الظهرة حتى استسلام الأمير عبد القادر ونفيه إلى سوريا 1848م.

عملت الإدارة الفرنسية على طمس تاريخ المنطقة بإنشاء القرية الكولونيالية "رونو" Renault على بعد أقل من 5 كلم من مازونة في الفترة الممتدة بين 1830 و1882، وتوفير المدارس والمرافق الضرورية بها حتى تستقطب الاهالي إليها، مع منع خريجي مدرسة مازونة من الوظائف العمومية، خصوصا إذا علمنا أنه تم إصدار مرسوم في 08 سبتمبر 1830، يقضي بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها [25].

رابعا/ دور مازونة الثقافي والعلمي في الجزائر

مع مطلع القرن 16م، بدأت حركة التعليم والثقافة منحى جديدا، فلم تعد مراكز التعليم محصورة في الحواضر، وإنما أخذت تنتقل من الريف، وتنتشر في كافة أنحاء البلاد، فتأسست الزوايا العلمية والدينية، والمدارس الفقهية والعلمية، وفي هذا الصدد يقول أحد المؤرخين: " ... إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال والقرى، واشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر، كمعاهد بني يعلى، وعبد الرحمان اليلولي... ثم معاهد الراشدية ومازونة والونشريس، واليعقوبي..." [26]. كما تحولت الزوايا الدينية القديمة إلى احتضان التعليم، بعدما كانت تقتصر على الإطعام وإيواء عابري السبيل.

ساهم في هذه النقلة النوعية، نزوح علماء الأندلس إلى الجزائر، فارين من بطش الكنيسة في بلادهم، ومعتقدين بأن ما أصابهم في بلادهم، جراء ابتعادهم عن الدين، إذ سارعوا إلى تدارك ما فاتهم، فأخذ بعضهم يجوب البلاد لاستنهاض الهمم والحث على الجهاد، والعودة إلى الدين وعلوم. ونظرا لموقع مدينة مازونة السياسي خلال الفترة العثمانية، – عاصمة بايليك الغرب– والميراث العلمي الذي كانت تحتفظ به المنطقة من زمان الزيانيين، فقد لعبت دورا رياديا في مجال العلم والفكر والثقافة، فالمؤكد أن مازونة كانت تحوي أكثر من معلم ثقافي وعلمي، خاصة منها الزوايا والمساجد، كلها ساهمت في بعث الحركة العلمية، حتى أصبحت قبلة لطلبة العلم طيلة العهد العثماني والفرنسي، إذ يذكر أحدهم، في هذا المجال: "... وهناك مدن أخرى في غرب

البلاد كان وضعها غير مستقر أيضا، ولكن حظها من التعليم كان أفضل من حظ وهران...، وكانت مدرسة مازونة مقصد العديد من الطلاب" [27]. كان لمدرسة مازونة التي تأسست أواخر القرن 16م – حسب مختلف أراء المرخين–، الفضل في الصيت الواسع والسمعة الطيبة للمدينة، فقد اعتبرت رمزا حضاريا ومعلما ثقافيا، تقارن أيامها حسب بعضهم بالمعاهد العليا في فاس، وتونس ومصر، لما كانت تتوفر عليه من أساتذة وعلماء ذاع صيتهم في المغرب والمشرق...[28].

نظرا للمكانة العلمية التي كانت تحظى بها المدرسة، فقد كان يقصدها فقط المتفوقون عن أقرانهم في مدارس وزوايا بلدانهم، كما هو الشأن عند أبي راس الناصري، ومحمد بن علي السنوسي، الذي تعتبر حركته — التي انطلقت من مدرسة مازونة– من أهم حركات الحركات في بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء.

ظلت مدرسة عاصمة البايلك الغربي تحتل مكانة هامة ووحيدة في الغرب الجزائري، إذ كانت موقعا ساميا للثقافة والعدل طيلة ثلاثة قرون من الزمن، ولعبت دورين أساسيين في المنطقة:

–دور ديني، يتمثل في العبادة وفق المنهج السليم على مذهب الإمام مالك.

–دور ثقافي، يتمثل في تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن، وإلقاء المحاضرات من طرف العلماء.

وعلى هذا الأساس فإن مدرسة مازونة، اعتمدت كغيرها من المؤسسات التعليمية في هذه الحقبة نفس الطريقة في وظيفتها التدريسية، فاعتماد طريقة الحفظ والاستظهار، يرجع إلى كونها تمثل المصداقية والبرهان في النقل عن الأصول، والمستوى الفكري الراقي لاعتماده على الذاكرة. هذا الحرص على النقول الدقيقة من الأصول، جعل العلماء يحرصون على طلب الإجازة من بعضهم البعض، لدرجة أن علماء مازونة قد ذاع صيتهم في هذا المجال، إلى القدر الذي دفع بعض علماء فاس لطلب الإجازة منهم، فهذا ابن رحمون الفاسي، يكاتب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن المهدي المازوني لطلب الإجازة منه، على كثرة العلماء في مدينة فاس، مما يدل على شهرة مازونة ودور ورسوخ قدم علمائها في هذا الفن من العلوم [29].

كان معظم شيوخ وأساتذة مدرسة مازونة من أهل البلدة، الشيء الذي ضمن الاستقرار والمواصلة في التلقين، ولازم ذلك سعة الحال عند معظمهم، بما كانوا يملكونه من بساتين وأراضي

فلاحية...، وبما أن الثقافة كانت في كثير من الأحيان تحت مسؤولية الدولة فإن حراس العقيدة من رجال الشريعة والتوحيد أساتذة ومشايخ يدافعون بأقلامهم ودروسهم عن العقيدة الرسمية في المدارس وفي حلقات الدروس العمومية بالجوامع، وقد حصل في كثير من الفترات انسجام بين رجال الدين والفكر ورجال السياسة أدى إلى التساند في تثبيت العلم والعقيدة [30].

مجانية التعليم في مدرسة مازونة جعلها مقصد العديد من الطلبة من مختلف الأرجاء، خاصة من المغرب الأقصى، حيث كانوا يقيمون طيلة سنوات الدراسة بالمدرسة، ولا يرجعون إلى أهلهم إلا بعد تحصيلهم على الاجازة، وكان الكثير منهم فقراء، حيث تلقوا الاهتمام والإكرام من طرف أهالي المنطقة، مقابل أن يصلي بهم هؤلاء الطلبة التراويح في شهر رمضان، ويعلمون أبنائهم في العطل الصيفية مقابل زرع قنطار أو إثنين لكل طالب فيستعين بها على شراء الكتب والملابس [31].

كما تواجدت بمدينة مازونة "الكتاتيب" كجزء من المؤسسات التعليمية، والتي لعبت دورا هاما في تعليم الاطفال وتلقينهم القرآن والأحكام الشرعية، حيث تواجد نوعان من هذه المؤسسة، البدوي والحضري، فالبدوي يسمى الشريعة، أي مكان تدريس الشريعة وهو عبارة عن خيمة ممتازة، وسط الحي البدوي تخصص للتعليم، وأما الحضري فيسمى "مسيد" أو مكتب. يلتحق الأطفال بالكتاب عندما يبلغون سن السادسة، يتعلمون الكتابة والقراءة، وتركز برامج التدريس على تعليم مبادئ اللغة العربية، واستظهار كتاب الله، وتعليم بعض مبادئ الحساب، والتدريب على الزخرفة والخط [32].

وعليه فإن الكتاتيب ومنها كتاب مدرسة مازونة، استطاعت أن تلعب دورين هامين طيلة الفترتين العثمانية والاستعمارية الفرنسية، ففي العهد العثماني مكنت المجتمع الجزائري من قهر الأمية والجهل، مقابل نشر العلم والثقافة في كامل أرجاء الوطن، ويشهد على ذلك الرحالة الألماني فيلهامشيمبرا، حين زار الجزائر في ديسمبر 1831 فيقول: "لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة ..." [33]. أما في العهد الاستعماري، فقد تغيرت الأهداف والنتائج بالنسبة للكتاتيب، وباقي المؤسسات العلمية والثقافية، إذ أصبحت تناضل من أجل

الحفاظ على اللغة العربية، والمقومات الحضارية للشعب الجزائري، والوقوف في وجه سياسة الاستئصال الاستعمارية الموجهة ضد التعليم الديني والعربي بوجه الخصوص.

إلى جانب هذه المؤسسات العلمية، – التي ذكرنا –، انتشرت الزوايا بمازونة في بداية العهد التركي بالريف، بالإضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة في المدن، حيث سهلت الزوايا المرابطية وساعدت على انتشار التعليم، لأن المباني كانت جاهزة، فلم تتطلب حركة التعليم في الريف بسرعة فائقة، مما جلب حتى طلاب المدن إلى الدراسة فيها. كما هو الأمر بالنسبة إلى الشيخ "سعيد قدورة" فقد تتلمذ بزاوية محمد بن علي أبهلول المجاجي في مجاحة.

كان من بين أهم مزايا الزوايا، حدوث توازن في التعليم بين المدينة والريف، واتساع قاعدة التعليم، ولكن من المهم جدا أن نذكر الفرق بين الرباط والزوايا، وبين الأنظمة الطرقية ورباط الجهاد، فتعدد مهام كل مؤسسة بين العبادة والعلم كثيرا ما أدى إلى بعض الغموض والخلط في تحديد المهام والأهداف، فإذا كان الرباط غير خاضع لطريقة بعينها، مع تفتحه في كثير من الأحوال على التعاليم الصوفية والمجاهدات الروحية، فإن الزوايا تعد قبل كل شيء مؤسسات مبنية على نشر الدعوة الطرقية، فهي صوفية قبل كل شيء، ولكنها تجمع في تعليمها بين تحفيظ القرآن والفقه والعقيدة والتربية والروحية والتهيئة للجهاد [34].

تكتف هذه المؤسسات في العهد العثماني بالجانب العلمي والثقافي، والذي ساهمت من خلاله في بعث الحركة العلمية في المنطقة التي كانت تندثر، بل تعد دورها إلى المساهمة في الدفاع عن الوطن وإعلان الجاهد ضد الإسبان في المرسى الكبير بوهران، في إطار حملة منظمة قادها شيوخ وطلبة الزوايا والمدارس، فانطلق من مازونة الشيخ أبو طالب وابنه سيدي هني رفقة عشرين طالبا، فرابطو أمام وهران وخاضوا معارك ضارية ضد الإسبان، كلفتهم فقدان العديد من الطلبة والمشايخ، ولعل أبرزهم سيدي هني نجل الشيخ أبي طالب الذي استشهد في قلب المعركة ونقلت جثته إلى مسقط رأسه بمازونة.[35]

حظيت المرأة في مازونة بنصيب من التعليم، إذ كانت تتلقى تعليمها في السنوات الأولى من حياتها في كتاب المدرسة لحظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة، ثم تبقى في بيت والديها فتنهل

على يديهما العلوم والمعارف والصنائع، لتنتقل بعدها إلى بيت زوجها فيستزيد علمها وتساهم في تربية وتعليم أبنائها وفق المنهج الذي نهلت منه [36]. كما شمل تعليم المرأة حتى بعض الرسميين في جهاز الدولة، ذلك أنه ورد في بعض الوثائق ما يشير إلى جلب وزير البحرية لمعلم العربية إلى داره ليعلم بنتيه، فكانت واحدة منهما قد حفظت القرآن، وتعلمت القراءة والكتابة وعمرها لا يزيد عن أربعة عشرة سنة [37].

كما وقد أورد محمد بن علي السنوسي عن عمته السيد فاطمة أنها هي التي كفلته بعد موت أبيه، وهو في السنة الثالثة من عمره، إذ كانت تعلمه زيادة على حفظ سور القرآن مبادئ العلوم اللغوية والتوحيد والفقه [38]، وفي موضع آخر يخبرنا أبي رأس الناصري عن والدته، "... كانت من أجَلّ نساء البدوية، وكان يضرب بها المثل في السخاء والصلاح، كرابعة العدوية، نشأت في بيت علم وصلاح..." [39].

إذا نظرنا إلى المرونة النظامية للمؤسسات التعليمية، فإننا نلاحظ طواعية هذه المؤسسات للحاجيات الاجتماعية، فهي في غالب الأحيان مفتوحة الأبواب والحلقات للصغار والكبار، والأساتذة أحرار في تعين موادهم وتوقيتهم ومنح إجازاتهم، ولكن هذا لا ينفي تحديد المستويات. كما أنه لا يوجد تحديدات ضيقة تفصل بين طبقة المؤسسة نفسها، فمسجد الحي والجامع والمدرسة، لها صفاتها وميزاتها بالإضافة إلى صفاتها المشتركة والتكاملية فيما بينها، ولكل منها وظيفتها الاجتماعية والتاريخية التي لا يمكن أن نغفل عليها.

خامسا/ أبرز علماء مدرسة مازونة

يعتبر العلماء كمرشدين دينيين واجتماعيين، يرتبطون بالمجتمع عن طريق التوعية الفكرية والدينية والوقوف ضد الانحراف السياسي والتقاعس عن الجهاد والتعسف الضريبي، وهذا ما زاد من قوتهم ومكانتهم لذا عامة الشعب بالجزائر رغم ترفعهم الطبقي، فصلتهم بالأهالي عن طريق الدروس والاختلاط بهم، يجعلهم محط أنظار السلطة. وفيما يلي نذكر أبرز علماء وفقهاء مدينة مازونة، سواء كانوا علماء مدينة مازونة، أو الذين درسوا بها وتخرجوا منها، وبالتالي ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، وفي المغرب الإسلامي بالخصوص.

1- عبد الرحمان بن محمد بن الشارف

مؤسس المدرسة الفقهية بمازونة ومن أعلام الفقه المالكي في العهد الزياني، تعلم ودرس على يد أبيه الشيخ محمد بن علي ابن الشارف، حيث لازم أباه في التعليم والتدريس ثم تولى رئاسة المدرسة بعد وفاته سنة 1164 هـ توفي بمدينة مازونة ولكن المصادر التاريخية وكتب التراجم لم تعطنا تاريخ وفاته.

2- الشيخ محمد بن علي بن عبد الرحمان بن محمد بن علي بن الشارف

المشهور بأبي طالب المازونيو هو حفيد الشيخ المؤسس للمدرسة ولد سنة 1112هـ تعلم الشيخ أبو طالب مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يد والده العلامة الفقيه علي بن عبد الرحمان وذلك بمدرسة مازونة الفقهية، ليتلقى العلم والفقه بعدها على يد شيوخ مازونة كما تلقى رواية الحديث النبوي الشريف وإسناده عن الكثير من علماء عصره أشهرهم على الإطلاق شيخ الجماعة بالجزائر القاضي المفتي أبي عبد الله محمد بن جعدون، كما كان يروي كذلك عن الشيخ ابن علي الشريف الزواوي.

تولى الشيخ أبو طالب المازوني التدريس بالمدرسة الفقهية بعد وفاة والده سنة 1189هـ، وبهذا نصب فيها للتدريس في سن مبكرة، وقد تميزت حلقته العلمية لطلبته بتدريس مختصر الشيخ خليل وشرحي الخرشي، والزرقاني، كما كان يدرسهم الرقائق، ورواية الحديث الشريف، وحفظ السند. ومن أشهر مؤلفاته، حاشية على شرح الخرشي على مختصر خليل المعنونة بـ "درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي" ومؤلف في علم التوحيد، توفي الشيخ أبو طالب سنة 1233هـ الموافق لسنة 1818 بمدينة مازونة عن عمر يناهز مائة وثلاثين 130 سنة، ودامت مدة تدريسه 44 سنة [40].

3- أبو عمران موسى بن عيسى المازوني

فقيه وعالم جليل، يبرز رسوخ تضلعه في العلم من خلال مؤلفه: "ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، إلى جانب، "حلية المسافر آدابه وشروط المسافر في ذهابه وإيابه"، وهي من المجامع الفقهية الكبيرة المفقودة، وابنه يحي صاحب "الدرر الكنونة...". اشتغل قاضيا

بمازونة كما ذكر في نيل الابتهاج [41]، أما الحفناوي فيصفه نقلا عن بعض الرواة: "بالفقيه الأجل المدرس المحقق، القاضي الأكمل، ... وله تأليف سماه "الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق..." [42].

4- يحي بن موسى أبو عمران بن عيسى بن يحي، أبو زكريا المغيلي المازوني

توفي بتلمسان عاصمة بني زيان 883هـ/1478م، تتلمذ على جلة فقهاء المذهب المالكي، من أبرزهم والده موسى بن يحي بن عيسى، صاحب كتاب "ديباجة الافتخار"، وقاسم بن سعيد العقباني، وأبي عبد الله القاضي الشريف المدعو حمو الشريف. يعد أبو زكريا من علماء وقضاة مازونة، وهو صاحب كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"، إذ يذكره تلميذه صاحب المعيار بقوله: "...الصدر الأوحد العلامة العلم الفضال ذي الخلال السنية، سني الخصال شيخنا ومفيدنا وملاذنا وسيدنا، ومولانا وبركة بلادنا أبي زكاريا سيدي يحي. وهو من العلماء الكبار الذين تناولوا الفتوى، وأصبحوا مرجعية فقهية، ولم يتوظف بعلمه عند السلطة، وكانت فتاوى المعيار والمازوني دائرة على فقه مالك بن أنس، لأنه المذهب الذي كان يتبعه جميع السكان باستثناء أتباع المذهب الإباضي" [43].

5- الحسن بن محمد بن محمد بن مصطفى المازوني

المعروف بابن منزول آغا، من كبار علماء مازونة في وقته، فقيه حنفي تركي الأصل من أصل مازونة، وبها نشأ وتعلم، ومن أبرز آثاره: كتاب تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك، وأرجوزة في فرائض الفقه الحنفي، بالإضافة إلى كتاب منهاج السلوك في شرح معاني تحفة الملوك، حيث شرح فيه الأرجوزة المذكورة، كما لم يعرف تاريخ مولده ووفاته، لكن المشهور أنه كان على قيد الحياة سنة 1727م [44].

سادسا/ خريجو مدرسة مازونة

بالمجيئ إلى خريجي مدرسة مازونة، من فقهاء وعلماء ومشايخ، ذاع صيتهم خارج أسوار المدينة، سواء داخل القطر الجزائري أو خارجه، جراء إجازات علمية، تحصلوا عليها من علماء مازونة، نذكر أبرزهم:

1- الشيخ محمد السنوسي 1202هـ/ 1276م

هو أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي مؤسس الطريقة السنوسية، ولد في مستغانم و نشأ في بيت علم ودين وفضل، فدرس علوما مختلفة بالمدرسة الفقهية بمازونة على يد شيخه أبي طالب المازوني وحفيده الشيخ أبي العباس أحمد بن هني، إذ يشير إلى ذلك في كتابه "البذور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة " فقال : "... فمنهم، وهو أجلهم وأكملهم وأفضلهم، ... أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف، قرأت عليه النصف الأول من المختصر،...وقرأت على حفيده من بعده أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر" [45].

2- الشيخ مصطفى الرماصي (ت 1136هـ)

المعروف بأبو الخيرات مصطفى بن عبد الله ابن موسى الرماصي، نسبة إلى قرية قرب مازونة، عالم من فقهاء المالكية، تعلم بالمدرسة الفقهية بمازونة على يد شيوخها وخاصة مؤسسها محمد بن الشارف المازوني الذي أخذ عنه علم الحديث والفقه المالكي وأجازه الشيخ في ذلك، ثم رحل إلى القاهرة حيث أخذ من علمائها، وقد نعته عبد الرحمان الجامعي الفاسي بقوله: " ... حامل راية الفقه المالكي في عصره ومصره"، ومن أبرز مؤلفاته: شرح خريدة السيوطي، بالإضافة إلى شرح النصيحة الزرقوية، وكذلك كفاية المديد على شرح عقيدة التوحيد[46].

3- الشيخ ابن قندوز (ت 1222هـ)

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن القندوز، شيخ الجماعة بالحضرة المستغانمية وأحوازها درس في المدرسة الفقهية بمازونة سنين عديدة، أخذ خلالها الفقه المالكي خاصة شرح مختصر الشيخ خليل، وصحيح البخاري، على العلامة ابن الشارف، ثم رحل إلى مصر وأخذ عن العارف بالله الدردير، كما أنه كان مصاحبا لصحيح البخاري يختمه كل سنة، وملازما لتفسير القرآن الكريم بين العشائر يختمه كل سنة غالبا، معتمدا في ذلك على الجواهر الحسان الثعالبي، ناهيك عن قراءة علم التوحيد كصغرى السنوسي [47]. ومن أبرز مؤلفاته: "البذور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة"، بالإضافة إلى "الدرر السنية في أخبار السلالة السنوسية"، و"المسائل العشر

المسماة بغية المقاصد وخلاصة المراصد"، إلى جانب "الشمس الشارقة في أسماء المشايخ المغاربة والمشارقة" [48].

4- الشيخ محمد أبوراس

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصر، ابن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، الراشدي المعسكري الجزائري، عالم وفقيه ومؤرخ، لديه عدة صاحب مؤلفات منها: "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"، و"الحلل السندسية"، و"الخبر المعرب" وغيرها، استقى الفقه المالكي وأصوله عن الشيخ أبي طالب المازوني، وأخذ أحكام الشريعة والقضاء عن الشيخ محمد الصادق بن أفغول، وعن الشيخ محمد بن عبد القادر القاضي أحد قضاة مازونة.

5- الشيخ عبد القادر بن المختار الخطابي

من أبرز خريجي المدرسة الفقهية بمازونة، صاحب كتاب: (الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب)، قرأ بمازونة على عالمها الشيخ أبي راس المازوني، تعلم عليه الحديث والتفسير والفقه المالكي، ثم سافر لتونس سنة، 1318هـ، فبقي بها نحو السنة، ثم رحل إلى مصر، وفيها أكمل مؤلفه هذا 1329هـ، ويقدر أنه توفي سنة 1336هـ بمصر[49].

لقد حفلت مازونة بالعلماء منذ الفترة التي سبقت العثمانيين، ولاسيما منهم حملة الشريعة من أهل الفقه وعلوم الدين... كالشيخ موسى بن عيسى بن يحي المازوني، وابنه يحي بن موسى المغيلي المازوني. فقد ذكرت بعض المراجع أن مدرسة مازونة عرفت انتعاشا كبيرا طيلة العهد العثماني، وحظيت بأساتذة لهم باع لا بأس به في العلم، لكن ما يؤسف له غياب التشخيص لأولئك الشيوخ.

أما في العهد الاستعماري فقد شهدت المدرسة مرحلة زمنية عصيبة، تميزت بالركود والتراجع العلمي نتيجة الرقابة والمضايقات التي فرضتها السلطات على الشيوخ والطلبة، ومع ذلك فقد عرفت فترات من الانبعاث والاستفاقة، كعهد الشيخ أبي رأس بن أبي طالب، لتستمر بين مد وجزر إلى سنة 1958م بوفاة آخر شيوخها أحمد ولد أبي رأس.

خاتمة:

بعد إتمام هذا البحث المتواضع والرجوع إلى جملة من المصادر والمراجع التي تناولت حاضرة مازونة ودورها العلمي والحضاري يمكن استخلاص جملة من النتائج نذكر أهمها في شكل نقاط وهي:

إن واضع اللبنة الأولى والأساسية لصرح الثقافة بمازونة هو أبو عمران موسى بن عيسى المازوني الغيلي، والذي قال عنه أبو القاسم الحفناوي أنه عالم جليل وعامل أصيل.

لقد تبوأت مازونة مكانة مرموقة حيث أصبحت عاصمة القطاع الغربي خاصة بعد الحملة الصليبية التي سقطت فيها مدينة وهران حوالي سنة 914هـ فقد شهدت ورود سيل من نخبة علماء البلاد فأسسوا فيها العديد من المعاهد العلمية كما يصفها المؤرخ الكبير محمد أبو راس الناصري المعسكري.

شكل الإطار الطبيعي والإطار التاريخي لحاضرة مازونة إطارا عاما متكاملا ومنسجما عمل على تطور واستمرار الحياة الحضرية. إن موقع مازونة الاستراتيجي والهام جعلها تحتل دورا رياديا أثر على ميادين مختلفة للحياة الحضرية في المنطقة.

لقد تمتعت مازونة بماضي تاريخي وتراث حضاري عريق انعكس على المجالين الثقافي والعمراني فاستفادت من الحضارة الرومانية والإغريقية والفينيقية.

لقد استفادت مدينة مازونة من تراث الأندلس وذلك عن طريق الهجرات البشرية التي عرفتها المنطقة، حيث تلقت المنطقة أكثر من غيرها على مستوى الإيالة نتيجة القرب. تأثرت مازونة بالحياة الثقافية التي كانت سائدة بالمغرب الأقصى.

شاركت وساهمت مازونة بصفة فعالة في الحركات –جنوب- شمال وشرق- غرب، حيث المبادلات المختلفة التي عبرت المنطقة كان لها تأثير على هذا المجال الحضري سواء منها تلك الحركات البرية أو البحرية.

إن وجود حواضر ثقافية وعلمية على مستوى الوطن العربي الأزهر والزيتونة والقرويين قد أثر في حاضرة مازونة ونخبها المثقفة سواء عن طريق الاحتكاك بخرجي هذه المعاهد عبر رحلات الحج

المنارة للاستشارات

أو عن طريق إرسال البعثات خاصة تلك التي أرسلها الباي محمد الكبير تشجيعا منه للحركة العلمية. إن وجود فئة جديدة في المجتمع الجزائري وهي الفئة التركية حملت وجلبت معها إلى المنطقة عادات وتقاليد شرقية أثرث هذا الجانب. الحياة الثقافية الثرية والمتنوعة لحاضرة مازونة كانت نتيجة الاستقرار السياسي والنهوض الاقتصادي الذي عرفه البايلك خاصة في الربع الأخير من القرن 18م.

ساد بايلك الغرب عبر مراحله المختلفة جوا ثقافيا مزدهرا ساهم في الاستقرار الحضري والحياة الدينية. لقد كان لإصلاحات الباي محمد الكبير الأثر البالغ في النهوض بالجانب الثقافي وتشييد المؤسسات الثقافية والمساهمة في دفع حركة التعليم والثقافة.

ساهمت الجالية الأجنبية (اليهود والنصارى) في إثراء الجانب المعرفي وتوسيع الرصيد الثقافي للمجتمع المازوني. كان التعليم بمدينة مازونة على درجة من الأهمية، حيث شهرة مدينة مازونة تجاوزت الحدود الإقليمية، كما استفادت من كل المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة، خاصة تلمسان، والقرويين بالمغرب الأقصى والزيتونة بتونس.

لقد كانت مدرسة مازونة على درجة كبيرة من الأهمية فمن حيث الحجم، كانت قاعة مدرستها تسع ما بين 60 إلى 80 طالبا، ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة. كما عرفت المدرسة قدوم طلبة من مدن عديدة لا سيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان، بل حتى من المغرب الأقصى وخاصة منطقة الريف، تخرج من مازونة الكثير من الأعلام من أبرزهم الكاتب والمؤلف أبو راس الناصري الذي وضع قصيدة في فتح وهران سماها" نفيسة الجماني في ثغر الوهراني" وشرحها " عجائب الأسفار ولطائف الأخبار".

عرفت مازونة كذلك بتعاطي فن الطرز بخيوط الذهب أو الفضة، على القماش أو الجلود، والذي كان ذوقا من أذواق أهل المنطقة رجالا ونساء. تمثلت مساجد مازونة بعد المسجد المركزي في مساجد الأحياء الأربعة حيث أن كل حي كان يضم مسجدا.

إن مدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية، والتي شيدت في القرن 16م من طرف الشيخ محمد بن شريف الأندلسي، لعبت دورا هاما في الإشعاع الثقافي، قد كانت مدينة مازونة مقر

المدرسة وملتقى العلماء، ومقر مبادرات فكرية وسياسية تستقطب الطلبة، ودرس بها علماء بارزون منهم أبو راس الناصري، كما ساهمت في تكوين نخبة مثقفة، ويجدر التنويه هنا إلى أن الحركة السنوسية قد انطلقت من هذه المدرسة، وهي تعد من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني واشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه والحديث وعلم الكلام.

لقد كانت علوم الفقه من ميزة إنتاج مازونة الفكري وصيغة ثقافتها حيث تخصصت المدينة في هذا النوع من الدراسات مثل أعمال كل من أبي عمران المازوني صاحب "الدرر المكنونة" وابنه يحي بن موسى المغيلي المازوني صاحب " الدرر المكنونة في نوازل مازونة".

لقد كانت لزوايا حاضرة مازونة دورا هاما وبارزا في الحياة الثقافية والاجتماعية. كان لمدرسة مازونة والمؤسسات الثقافية الأخرى من مساجد ومكتبة ملحقة بالأحباس دورا هاما في استمرارية الحياة الثقافية وتنشيطها والعناية بمؤسساتها.

لقد شكلت مدينة مازونة مركزا حضريا بحق ساهم في توسيع وتعميق التحضر، كما ساهمت في نوع من التكامل والتواصل فيما بينها وبين الحواضر الأخرى المجاورة خاصة في المجالين الثقافي والعلمي.

الهوامش:

1- بوغرارة، "**موعد البحث عن الحلقة المفقودة**"، جريدة الخبر، الجزائر، 13جوان 2001م، ص19.

2- محمد بن يوسف الزياني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تحقيق: المهدي البوعبدلي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007، ص55.

3- محمد عباس، الدور **العلمي والسياسي لمدرسة مازونة الفقهية، دراسة مونوغرافيةما بين القرن 15م و19م**، مذكرة ماجيستر في علم الاجتماع، جامعة وهران، الجزائر، 1997م، ص15.

4- Belhamissimoulay, (1981), Mazouna: **Une petite ville une longue histoire, Socètè Nationale d'Edition et de diffusion**, Alger. 1982, p 27

5- فريد قموح، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة "مسائل الجهاد والايمان والنذور"**، مذكرة ماجيستر في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011، ص64.

6- الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989، ص521.

7- حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، تحقيق: محمد حجي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص36.

المنارة للاستشارات

8- فمارمول كربخال (1989) كربخالمارمول، (1989)، **إفريقيا**، تحقيق: محمد حجي، ج2، دار المعارف، الرباط، 1989، ص359.

9- فريد قموح، المرجع السابق، ص 94.

10-إسماعيل بركات، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة" من مسائل الطهارة إلى مسائل النزاع"**، مذكرة ماجيستر في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010، ص124.

11-أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا**، تحقيق: الفيلالي عبد الكريم، دار نشر المعرفة، الرباط، 1967، ص48.

12- ميلود ميسوم، **مدرسة مازونة " دراسة تاريخية فنية"**، مذكرة ماجيستر في الفنون الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2003، ص08.

13- أحمد بحري، **حضارة مازونة دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث، 1500– 1900**، أطروحة دكتوراه، قسم الحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2013، ص28.

14- Youcef Loukik**, Mazouna ancienne capital du Dahra imprimerie algérienne**, Alger. 1912, p 14.

15- Ibid, p 14.

16-عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1955، ص110.

17- ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 09.

18- Belhamissimoulay, **Mazouna: Une petite ville une longue histoire**, Socètè Nationale d'Edition et de diffusion, Alger. 1982, p 33-34.

19-عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج7، تحقيق: زكار سهيل، دار الفكر، لبنان، 2000، ص48.

20- أبو زكريا يحي بن موسى المازوني، **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق: مختار حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر، 2004، ص153.

21-الطاهر جنان، **مازونة عاصمة الظهرة ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري**، الجزائر، 2005، ص21.

22-ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 10.

23- صالح عباد، **الجزائر خلال الحكم العثماني 1514– 1830**، دار هومة، الجزائر، 2011، ص292.

24-المزاري لاغا بن عودة، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران الجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19**، ج1، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص270.

25- صالح عباد، المرجع السابق، ص 205.

26-ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص14.

27- المهدي بوعبدلي، " **الثقافة والتوجيه بالجزائر** "، أشغال مؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1970، ص07.

المنارة للاستشارات

28-أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث**، " **بداية الاحتلال**"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص13.

29-نصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ، العهد العثماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص133.

30-أحمد بحري، المرجع السابق، ص 212 - 213.

31- عبد المجيد مزيان، "**الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار**"، مجلة الثقافة، ع/ 90، نوفمبر، الجزائر، 1985، ص11.

32- ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 198.

33-أحمد بحري، المرجع السابق، ص 219.

34- دودو أبو العيد، **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان**، الجزائر، 1975، ص13.

35-عبد المجيد مزيان، المرجع السابق، ص 44.

36- مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص08.

-37

Belhamissi ,1982, p 37 -1

38-أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي، 1500– 1830**، ج1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص338.

39-ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 204.

40-ميلود ميسوم، المرجع السابق، ص 88.

41-أحمد بحري، المرجع السابق، ص 241-243.

42-أحمد بابا التمبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق: عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس، 1989، ص605-606.

43-الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص484.

44- الونشريسي، **المعيار المعرب**، دار الخليل العلمية، الجزائر، 2012، ص58.

45- عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص280.

46-ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 196-197.

47-عادل نويهض، **أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830– 1960**، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، 1995، ص110.

المنارة للاستشارات

48-أحمد بحري، المرجع السابق، ص 250.

49- المرجع نفسه، ص 250.

50-ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص 196-197.

المنارة للاستشارات